doi.org/10.52866/esj.2021.04.17.14

الرعب الذي أحدثه الغزو الصليبي في المشرق العربي الإسلامي
(490 - 600هـ/ 1096 - 1204م)

أ. م. د. علي سلطان عباس
جامعة كركوك / كلية التربية للعلوم الإنسانية - قسم التاريخ

مستخلص:

تهدف الدراسة إلى توضيح ما سَبَبَتهُ الحروب الصليبية من رعب وهلع في صفوف الناس بالمشرق العربي الإسلامي ، من جراء ارتكابهم الكثير من الفظائع والمجازر منذ حركتهم الأولى داخل الأراضي الامبراطورية البيزنطية وصولاً الى بلاد الأناضول ومنها إلى مدن بلاد الشام وفلسطين ولاسيما في بيت المقدس إذ سالت فيها أنهار من الدم واستمر مسلسل الرعب والخوف مُهيمِن على نفوس العامة والخاصة مع كل حملة صليبية على المشرق العربي الإسلامي مما دفع سكان العديد من المدن الى تركها حتى قبل وصول الصليبين لها خوفا من بطشهم وملاقاة مصير سكان معرة النعمان وبيت المقدس وقيسارية وغيرها من المدن ، والأنكا من ذلك مبادرة حاكم دمشق مجير الدين ابق بن بور (535 – 549هـ/ 1140 – 1154م) إلى دفع أموال وضرائب مقابل بقائه في السلطة قبل وصولهم المدينة.

الكلمات الدالة : الرعب ، مجازر الحروب الصليبية، المؤرخون الغربيون، مملكة بيت المقدس اللاتينية، الصليبيون .

The Horror that the Crusade Invasion brought up on the Islamic Arab East (490- 600 A.H/1096- 1204 A.D)

Prof .Asst Dr. Ali Sultan Abbas

University of Kirkuk / College of Education for Humanities - History department

Abstract:

The study aims at clarifying the horror made by the crusade wars among people in the Islamic Arab East for they committed plenty of massacres since their first movement inside the Byzantium Empire lands reaching Anatolia and then to the cities of Levant and Palestine namely Jerusalem where rivers of blood flowed. The episode of horror went on with fear controlling all people with each crusade campaign on Islamic Arab East. This made people to leave their cities before the arrival of crusaders for people fear their oppression and face the same fate as the people of Ma›arat Al-Nu›man, Jerusalem and Qisaria etc. The worst of these is the action of the ruler of Damascus Mujeeruldeen Abiq bin Boori who paid money to stay in the rule before they arrive the city.

Keywords: horror, massacres of crusade wars, Europe historians, Latin of Jerusalem kingdom, crusaders.

المقدمة :

لسنا هنا بصدد دراسة تاريخ الحملات الصليبية إذ إنه قد بحثت تفاصيلها في مجلدات عدة ولكننا سنعالج في هذه الدراسة، ما سَبَبتهُ الحشود البربرية من الشعوب اللاتينية، من خوف وفزع وهلع وصل إلى حد إثارة الرعب المتعمد ليس في صفوف سكان المشرق العربي الإسلامي فحسب بل شمل سكان جميع المدن التي مروا بها انطلاقا من موطنهم الأصلي في الغرب الأوربي الكاثوليكي (الذي يشمل بلاد الفرنجة وتعرف حاليا فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنكلترا)، مروراً بمدن بلاد المجر ومدن بلاد هنغاريا ومدن بلاد بُلغاريا[1] وصولاً إلى الأراضي الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، والمعروف أنَّ سكان تلك البلاد غالبيتهم من المسيحين وهم إخوة لهم في الديانة ونسبة من اليهود وأقلية من المسلمين في بُلغاريا اعتنقوا الاسلام في عهد الخليفة العباسي أبو الفضل جعفر بن المعتضد المقتدر بالله (282-320هـ/ 896-933م) الذي أرسل إليهم من يعلمهم أركان الإسلام وأداء فرائض الشريعة الإسلامية[2] وقد اتبع الصليبيون أللاتينيون عدة وسائل لإثارة الرعب منها الإفراط في القتل أينما حلوا وارتحلوا دون تمييز بين النساء والأطفال والشيوخ، ولا بين اليهودي أو مسيحي أو مسلم ،لم يكتفوا بالقتل العشوائي بل مَثَّلوا بجثث ضحاياهم في جميع المدن التي احتلوها، حتى غدا منظر الجثث المقطعة الرؤوس والأطراف والمبقورة البطون والمحروقة سمت تلك المدن المنكوبة، ومما زاد في بشاعة المنظر البحث المتواصل للصليبين في بطون الضحايا ورمادهم بعد الحرق عن دنانير ذهبية أو دراهم فضية ظنا منهم أنها قد حفظت في بطون وأحشاء الضحايا ولاسيما النساء جراء الرعب الذي أصابهم عند حصار مدنهم ومحاولة إخفاء أموالهم، لم تسلم القبور من أعمال النبش وسرقة المقتنيات المدفونة معهم، فضلا عن تقطيع أطراف بعض الأسرى الشجعان الذين وقعوا بأيديهم أو سمل عيونهم بطرق وحشية وسط احتفالات عامة، ولنا بعد ذلك ان نتصور حجم الرعب الذي سببته تلك الممارسات الوحشية من رعب في جميع بلدان المشرق العربي الإسلامي، سنتابع تلك الأحداث الوحشية من خلال ما دونه المؤرخون الغربيون والشرقيون المعاصرون لتلك الأحداث والمؤرخون الذين جاءوا بعدهم .

جاءت فكرة هذه الدراسة، لتسليط الضوء على الجوانب الخفية من تاريخ الحروب الصليبية، وللإجابة عن تساؤلات التي تدور في فكر ومخيلة دارسي التاريخ الإسلامي والمهتمين بأحداثه هل يعقل أن المسلمين الذين فتحوا الشرق والغرب أصبحوا عاجزين عن الدفاع عن مدُنهم ومستسلمين للإبادة الجماعية وعمليات السلب والنهب والتدمير التي مارستها ضدهم الحشود البربرية الكاثوليكية الصليبية فيما عرف واشتهر باسم الحملات الصليبية؟ ومن هذا المنطلق ضمت الدراسة تعريف مصطلح الرعب لغةً واصطلاحاً، والتمهيد لتوضيح أن الرعب هو جزء من حياة الشعوب البربرية اللاتينية الكاثوليكية وأربعة مباحث: المبحث الأول: عن الرعب الذي سببته الحملة الصليبية الأولى، والمبحث الثاني: عن الرعب الذي سببته الحملة الصليبية الثانية، والمبحث الثالث عن الرعب الذي أحدثته الحملة الثالثة، والمبحث الرابع: عن الرعب الذي أحدثته الحملة الصليبية الرابعة،

(1) مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال، شديدة البرد لا يكاد الثلج يقلع عن ارضها صيفا وشتاء، بناؤهم بالخشب وحده شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت :1995)، مادة بلغاريا: م1/ 485.

(2) ياقوت ، معجم البلدان :م1/ 486.

واختتمت الدراسة بملخص للنتائج التي تم التوصل إليها .

المقصود بمصطلح الرعب لغةً واصطلاحا :

في البداية علينا التميز بين المقصود بالخوف والفزع- الهلع وبين الرعب موضوع دراستنا ،فالخوف لغةً من الفعل خَافَ وعَرّفهُ الراغب الأصفهاني بأنهُ توقع حدوث مكروه أو شر ما[1]، وقد وردت كلمة الخوف {124} مرة في سور القرآن الكريم[2]، أما الفزع والهلع فهو تَمَكُّن الخوف من القلب واختلال العقل المؤقت والمبادرة بالهرب، وبعد ذلك يأتي الرعب ويعني اصطلاحاً: الذعر والخوف الشديد من الخطر، وهو أخص من الخوف ويدل على امتلاء قلب الإنسان خوفاً وفزعاً وهلعاً الى درجة فقدان القدرة على التفكير والحركة الجسدية، ويصبح الانسان مشلولاً مستسلماً تماماً للأحداث والمصير الذي يقرره العدو[3]، كما حدث لحاكم مدينة انطاكية باغي سيان[4]، وجاء في لسان العرب لابن منظور تعريف الرُّعبِ والرُّعبُ بمعنى الفَزَع والخَوفِ، رعبه يرعبه رُعبًا فهو مرعوب وَرعيب: أفزعه[5]، وقد وردت في القرآن الكريم كلمة الرّعب في أربع سور، قال تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6]، وفي سورة الانفال قال تعالى: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾[8] وفي سورة الحشر قال تعالى:﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[9] ونلاحظ أنَّ الله تعالى قد قصر وقوع الرعب في القلوب وسيطرته عليها، ويقول الراغب الأصفهاني: «الرعب: الانقطاع من امتلاء الخوف»[10]، وفي أدق وصف لأثر الرعب في نتائج الحروب يقول الشاعر الاندلسي ابو عبدالله محمد بن يوسف المشهور بابن زمرك (733- 793هـ/ 1333-1392م) في قصيدته المعنونه: «طلعت راية الصباح»:

نُصِرتَ بالرُّعبِ فِي الحُروبِ
والرُّعبُ أجَدى مِن السلاحِ [11]

وفيها اشارة واضحة الى قوة أثر استخدام الرعب كسلاح في الحروب المصيرية الى درجة أنه يحسم نتائجها ويقلب التوقعات المادية والبشرية سواء في العصور الوسطى أو في الوقت الحالي .

وهنا لابد من الاشارة الى ضرورة التميز بين المقصود بمصطلحات تاريخية يتداولها مؤرخو الحروب الصليبية وهي :

(1) ابو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القران، دار القلم (دمشق :2010م)، مادة الخوف ص303.
(2) محمد فواد عبد الباقي، معجم المفهرس لألفاظ القران الكريم، دار الكنب المصرية (القاهرة:2006م)، ص246 – 248.
(3) نخبة من الباحثين، موسوعة التفسير الموضوعي للقران الكريم ، مركز تفسير الدراسات القرآنية، مادة الخوف .
(4) ينظر: ص11 من الدراسة .
(5) لسان العرب، اعتنى بتصحيحه امين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، مؤسسة التراث العربي ط3 (بيروت :1999) :5/ 240.
(6) سورة ال عمران اية:151.
(7) الآية:12 .
(8) سورة الأحزاب الآية :26
(9) الآية :2.
(10) المفردات ، ص 356.
(11) محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الاندلسي، تحقيق د. محمد توفيق النيفر، دار الغرب الاسلامي، ط1(بيروت :1997)،ص542.

مصطلح الغرب الاوربي: المقصود به جموع المسيحيين الغربيين الكاثوليك الذين خرجوا من جميع انحاء أُوربا، بعد خطاب البابا اوربان الثاني في دير كليرمونت، واتخذوا الصليب شعارا لهم في غزوا المشرق العربي الاسلامي، وعرفوا لاحقاً بالصليبيين ويتحدثون اللغة اللاتينية[1]، والذين عرفوا في ما بعد تأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية، بالشرق اللاتيني (Latin East): وهو الكيان الصليبي الذي استقر في بلاد الشام والجزيرة الفراتية [2]، اما مصطلح الشرق المسيحي البيزنطي: المقصود به الروم وعاصمتهم القسطنطينية ويتحدثون اللغة اليونانية بدلا من اللاتينية ومعظمهم على المذهب الارثوذكسي ومصطلح المسيحيين الشرقيين: المقصود به الارمن والسريان والاقباط وغيرهم من معتنقين الديانة المسيحية في الشرق العربي عاشوا في ظل الاسلام وارتبطوا بالشرق بروابط ذات جذور تاريخية اصلية .

التمهيد :

اشتهرت قبائل الفرنجة أو الفرنج (Frank) ذات الأصول الجرمانية التي استولت على بلاد غاليا (غالة) سنة 486م ومنها اشتق اسم فرنسا الحديثة (France)، وقد عَمَّمَتْ المصادر العربية التسمية لتشمل بلدان ألمانيا وإنكلترا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها[3]، بتاريخها الدموي، في ممارسة القتل والنهب أينما حلوا وارتحلوا، وكان المفروض بعد اعتناقهم الديانة المسيحية أن تتغير أحوالهم ويجنحوا إلى السلم في حياتهم كون تعاليم الديانة المسيحية تنص على التسامح و السلم «**لان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون**»[4] إلا أنهم على العكس من ذلك، كما تشير المصادر عند الحديث عن حروب شارلمان إلى نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية ضد السكسون فقد خيرهم بين اعتناق المسيحية الكاثوليكية أو الموت فقطع رؤوس [4500] شخص منهم في يوم واحد سنة 166هـ/ 782م لرفضهم ذلك المعتقد [5] وقد عرفت تلك المذبحة باسم مذبحة فردان[6] والملاحظ أنَّ مؤرخ شارلمان اينهارد تجاهل تلك المذبحة، مبرراً ما لحق بهم من مذابح على يد سيده شر لمان واصفاً السكسون بقوله : « مثلهم مثل كل قبائل جرمانية، كانوا شعباً مشهوراً بالقسوة، ومنساقاً لعبادة الشياطين ومعاديا لديانتنا (المسيحية)[7]ولنا أن نتصور مقدار الوحشية والهمجية لقبائل الفرنجة البربرية خاصة والقبائل الجرمانية عامة .

والمعروف أن جميع بلاد غاليا وولاياتها استجابت

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية ، عدد 102 (بيروت :1987)،ص24.

(2) محمد مؤنس عوض، نقد رؤية المؤرخ البريطاني السير ستيفن رنسيمان، مجلة بحوث الشرق الاوسط، العدد37ج1/ 23 .

(3) علي سلطان عباس، المغاربة في مصر وبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (490 – 690هـ/ 1098 – 1290 م)، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الموصل (كلية التربية: 2000)، ص48 ؛ امام الشافعي محمد حمودي، الاسرى في الامارات الصليبية، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، مجلد1 – العدد28 سنة 2009، ص384.

(4) انجيل متي (47:26–52)؛ للمزيد ينظر: قاسم عبده قاسم، الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الاولى 1095–1099م ، ط1، ذات السلاسل (الكويت:1988م)، ص14.

(5) عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الاوربية (476-1500م)، المؤسسة اللبنانية للكتاب الاكاديمي ط1(بيروت :2014)، ص94.، عبد الامير محمد امين واخرون، التاريخ الاوربي في العصور الوسطى، مطبعة جامعة بغداد (بغداد :1980م)، ص110.

(6) هـ .و. كارلن– ويفز، شار لمان، ترجمة السيد الباز العريني ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة :1959)، ص112.

(7) سيرة شار لمان، ترجمة عادل زيتون، دار الاحسان للطباعة والنشر (دمشق :1989)، ص66–68.

لخطاب البابا أُوربان الثاني، اذ شكل الفرنجة غالبية المشاركين في الحملات الصليبية على حد وصف أحد المؤرخين المعاصرين لها بقوله: «مما أحدث حركة عظمى شملت جميع أقطار غالة وولاياتها»[1] وانطلقوا نحو القسطنطينية عبر الطريق البري بقيادة بطرس الناسك (Peter the Hermit) الذي سلك طريق المجر إلى القسطنطينية، والطريق البحري بزعامة بوهيمند الذي سلك طريق بلغاريا نحو القسطنطينية ومنها إلى المشرق العربي الإسلامي، وخلال مسيرتها ارتكبت تلك القوات كثيرا من الفظائع والمجازر، فعند وصولهم الى بلاد هنغاريا ارتكبوا مذابح تجاه سكانها المسيحيين واليهود، وتحديداً في مدينة كولون (koln) عانى منهم سكانها اليهود، كما وصف لنا ذلك أحد المشاركين في هذه الحملة بقوله: "اقترفوا المجازر ضدهم ،... قتلوهم ثم هاجموا بيوتهم وخربوها، وبعد ذلك هاجموا أماكن العبادة – الكنس ونهبوا الأموال، وعندما رأى اليهود وعددهم حوالي مائتي رجل ما حدث لإخوانهم هربوا باتجاه المرفأ وركبوا السفن باتجاه نويس"[2]، وتابعوا المجازر ضد اليهود عند وصولهم مدينة (ما ينز mainz–)على الرغم من تعهد أسقف المدينة (روتارد ـ Ruothard) بحمايتهم وجمعهم في مكان آمن تحت حماية أمير المدينة الإقطاعي غراف إيميشو – Emicho) الذي غدر بهم وهاجمهم بالحراب والسهام وخلع أبواب القاعة الموجودين بها وقتلهم جميعا وعددهم [700] يهودي[3]، وعند وصولهم الى بلغاريا قام جيش بطرس بحرق مدينة بلغراد وسلبها[4]، وعند وصولهم مدينة القسطنطينية عاصمة البيزنطيين استمرت الأعمال الوحشية الهمجية لتلك القوات، وكان من المفترض ألاّيحدث ذلك على الأقل كون تلك الأراضي التي اجتازوها شكل غالبية سكانها من معتنقي الديانة المسيحية، مما دعا أحد المؤرخين المشاركين بها إلى وصف هذه الحالة بقوله: «فسار المسيحيون اسوا سيرة، اذا خربوا قصور المدينة وأضرموا فيها النيران وخلعوا الرصاص الذي كانت تغطى به الكنائس وباعوه للإغريق»[5]، ونتيجة لهذه الأعمال الهمجية طلب الإمبراطور البيزنطي الكسيوس سنة 1096م من قائد حملة النبلاء جودفري السيطرة على جيشه ومنعهم من السلب والنهب وتخريب المدن، ومع ذلك «بدأ الحجاج بالسلب والنهب وسرقة المواد الغذائية»[6].

ويبدوا أنه هذه الأخبار وصلت إلى مسامع بوهمند أحد القادة الذي وصل بحرا إلى بلغاريا وأصدر توجيهاً إلى جنوده «حثهم على الطيبة والتواضع والكف عن تخريب تلك البلاد التابعة للنصارى»[7]، ومع ذلك ظل باقيا في تعامل سكان مقاطعة كستوريا بحذر عند مرور جنود الحملة الصليبية الأولى بها وكانوا متخوفين جدا وحذرين من أفراد الحملة، مما جعل أحد المشاركين فيها يصف مشاعرهم بقوله: «لم ينظروا إلينا نظرهم إلى حجاج بل خيل إليهم أننا طامعون في تخريب أرضهم وافتك بهم»[8]، وقد برر كراهيتهم بقوله: «وكانوا محقين في ذلك حيث سلبت منهم الثيران والخيل والحمير وكل ما صادف رجال الحملة، ومن ثم انتقلوا إلى إقليم pelagonie، وهاجموا إحدى قراه بقسوة ومن

(1) مجهول، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق حسن حبشي، دار المعارف (القاهرة :1947م، ص101.
(2) البرت فون اخن، تاريخ الحملة الصليبية الاولى، تحقيق وترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج51 (دمشق :2007م)، ص31 .
(3) البرت فون ، تاريخ الحملة ، ص31 .
(4) البرت فون ، تاريخ الحملة ، ص33.
(5) مجهول ،تاريخ الفرنجة ، ص102.
(6) البرت فون ، تاريخ الحملة ، ص 35.
(7) مجهول ، تاريخ الفرنجة ، ص107.
(8) مجهول ، تاريخ الفرنجة ، ص107.

جميع الجهات وبعد الاستيلاء عليها "أضرمنا بها النار وأحرقناها بسكانها"[1] بدعوى أنها ملحدة وليست على الديانة المسيحية، وهذه الوحشية والقسوة تركت انطباع آثار الرعب لدى سكان المناطق التي مروا بها وصولا إلى بلاد المسلمين الذين أخذوا يتابعون أخبار تلك الحملات، وما فعلته من عمليات التخريب والسلب والنهب عند مرورها في أراضي سكانها من المسيحين، مما جعلت الإمبراطور البيزنطي الذي عانى كثيرا منهم إلى درجة أنه عجل بعبورهم إلى آسيا الصغرى، وزود السلاجقة الأتراك بمعلومات مهمة عن أعدادهم وتحركاتهم وكان يأمل من ذلك القضاء عليهم[2].

المبحث الاول
الرعب الذي احدثتهُ الحملة الصليبية الأولى First Crusades (489-492هـ/1096-1099م):

على الرغم من المبالغة الواضحة في الأعداد التي اوردها فوشيه (Flusher) عن الذين لبوا نداء البابا أُوربان الثاني (Urban II 481- 493هـ/ 1088- 1099م)، إذْ قدر عددهم بأكثر من ستة مليون محارب، ونتحفظ على مدى دقة وصحة هذه الأعداد الكبيرة، ومع ذلك لا يمكن تجاهل حقيقةٍ مفادها إن هذه الأعداد مرعبة للغاية عند سماع أخبارها وانتشارها في المشرق العربي الإسلامي، سيما وأن الذي أوردها أحد أبرز المؤرخين الفرنسيين الذين شاركوا و أرخوا لهذه الحملة وبالتالي علينا التعامل مع رواياته باهتمام، وفسر لنا ايضا اسباب تناقص هذه الأعداد سريعاً لعدم تحملهم مشقات الرحلة وانتهاء الشحن النفسي لديهم، فضلا عن موت أعداد كثيرة منهم تقدر بالألف في الطريق كونهم مرضى أو عاجزين حتى "امتلأت الطرق والحقول بقبور الحجاج الذين دفنوا بالعلن"[3]، حتى بلغ عدد الواصلين منهم إلى مدينة نيقيه بـ (600000) مقاتل منهم (100000) مدرع ومدجج بالقلانس والدروع فضربوا حصارا عليها[4]، ومن المؤكد ان الأعداد التي وصلت إلى المشرق العربي الإسلامي كانت كثيرة وكافية لإحداث رعب في أي مكان يتوجهون إليه ولاسيما أنَّ هذه الأعداد مشحونة بشحنات دينية ومعدة إعداد معنوي عالٍ تحت عنوان: «إنقاذ قبر السيد المسيح»، وهي مستعدة لتحمل الأعباء التي تصل إلى حدَّ الموت، ومدمرة لكل شيء تواجهه من أجل تحقيق أهدافها، كما اكد ذلك ابن الأثير في إشارة واضحة إلى كثرة عددهم وعديدهم بقوله: «ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام»[5].

هذه الأخبار جعلت المؤرخ ابن القلانسي (ت:555هـ/ 1160م) يتابع ردة فعل الناس في المشرق العربي الإسلامي منذ وصول اللاتين الكاثوليك إلى مدينة القسطنطينية سنة (490هـ/ 1096م) بقوله: «وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها»[6]، وترتب على ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية الأساسية مثل الزيت، والملح، وغيرها، ومع تقدم الطلائع الأولى لهذه الحملة إلى المشرق العربي الإسلامي بقيادة بطرس الناسك، بدأت التصرفات الوحشية تطغى بشكل أكثر وضوحاً على سلوكيات المشاركين فيها شيئاً فشيئاً.

ولكل مدينة قصدها الصليبين واستولوا عليها قصة مرعبة ،فعند حصارهم لمدينة نيقيه[7] سنة 491هـ

(1) مجهول ، تاريخ الفرنجة ، ص107 .
(2) ابن القلانسي ، ذيل دمشق، ص173.
(3) فوشيه ، تاريخ الحملة ، ص 46.
(4) فوشيه ، تاريخ الحملة ، ص46.
(5) الكامل في التاريخ ، تحقيق علي شيري ، ط1 دار الكتب العلمية (بيروت :2004م):9/ 420.
(6) ذيل تاريخ دمشق ، ص134.
(7) نيقيه: مدينة من اعمال اصطنبول غلى البر الشرقي . ياقوت

/ 1097م الذي دام سبعة أسابيع اعتمدوا على أسلوب إثارة الرعب المتعمد في نفوس سكانها من خلال جمع رؤوس ضحاياهم من المسلمين الذين يظفرون بهم في أطراف المدينة «يضعون رؤوس القتلى في مقالع ثم يقذفونها الى المدينة ليبثوا الذعر بين سكانها الأتراك «[1]، هذه الممارسات كان لها اثار نفسية مؤثرة على سكان نيقيه وسرعنما دب الرعب في نفوسهم فتفاوضوا على تسليم المدينة مع مندوبين الإمبراطور البيزنطي حصرا خوفا من بطش اللاتين وعدم الثقة بهم[2].

اما مدينة أنطاكية فكانت لها حصة اكبر في مجال الرعب، يبدا مع حصارها سنة 492هـ/ 1098،إذْ عُدِمَتْ المواد الغذائية الأساسية فيها [3]، وعانى سكانها طيلة فترة الحصار من الخوف والقلق فضلا عن التعب الشديد من جراء الاستمات في الدفاع عن مدينتهم ،هذا الصمود والمقاومة جعلا ألصليبيين المحاصرين للمدينة يعانون من المجاعة وهو ما دفعهم الى القيام بعمل مرعب وصفه أحد المشاركين بهذا الحصار بقوله: «ذبحوا والتهموا خيولهم وحميرهم التي كانت تموت بدورها من الجوع»[4] أي أنهم أكلوا هذه المرة لحوم الحيوانات الميتة وهو ما يعكس لنا مقدار الوحشية والهمجية لهذا الجيش الذي جعل سكان أنطاكية في دهشة من هذه التصرفات «واستولى عليهم الذعر بشدة، وكانوا يخشون على اوضاعهم»[5]، ومما زاد في آلام السكان المحاصرين وملء نفوسهم بالرعب والخوف استخدام الصليبين طريقتهم المعتادة بقطع رؤوس ضحاياهم من المسلمين، وقذفها إلى داخل أسوار المدينة وتعليق قسم من هذه الرؤوس على عمدان من القصب بمواجه المدينة [6]، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا بكل وحشية إلى نبش مقابر المسلمين حول المدينة وإخراج الجثث حديثة الدفن وسرقة بعض المقتنيات المدفونة معهم ثم قاموا بقطع رؤوسها «وأمروا بتحطيم القبور ونبشها وطرح الجثث بعيدا عن الأضرحة، ورموا بها جميعا في خندق حفروه لها، كما حملوا الرؤوس المقطوعة الى المعسكر ليعرف القوم عدد القتلى «[7] وإدخال الرعب في قلوبهم تمهيدا لاقتحام المدينة وإنهاء مقاومتها .

ونجحوا في تحقيق هدفهم هذا وانهارت مقاومة سكان المدينة مع سماعها صيحات بعض المقاتلين الصليبيين الذين اقتحموا المدينة مع الساعات الأولى للصباح الباكر، وقدم لنا المؤرخ ريموندا جيل وصفا دقيقا لتأثير الرعب الذي أصاب سكانها بقوله: «وعند الفجر صاحوا صيحات مرعبة جدا حتى ان المدينة كلها اضطربت وبكى الأطفال والنساء ... وفزع الأنطاكيين لما رأوا قواتنا على التل الذي يشرف على المدينة، فاندفع بعضهم من الأبواب وقفز بعضهم من الأسوار»[8] فيما رسم لنا المؤرخ ابن الأثير صورةً عَمّا حلَ بحاكمها باغي سيان الذي دافع بكل بسالة عن المدينة حتى أصابه الذعر والفزع عندما استفاق فجأة على اصوات صيحات الصليبيين وأبواقهم، فهرب دون تفكير مع ثلاثين غلاما من حراسه تاركا عائلته والمدينة تواجه مصيرها، ولحق به نائبه، وهكذا توقفت المقاومة واستسلمت الناس للقتل والسلب والنهب

الحموي ، معجم البلدان :1/ 333.

(1) مجهول ، تاريخ الفرنجة ، ص113.

(2) مجهول ، تاريخ الفرنجة ، ص115.

(3) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص134.

(4) فوشيه ، تاريخ الحملة ،ص65.

(5) وليم الصوري، الاعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله الى العربية د. سهيل زكار، دار الفكر (بيروت: 2003م): 1/ 299.

(6) وليم ، الاعمال المنجزة :1/ 301.

(7) مجهول، اعمال الفرنجة وغيرهم من حجاج بيت المقدس، ص135 – 136 .

(8) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية ط1 (الاسكندرية :1989م)، ص119.

دون مقاومة، وعلى بعد أربعة فراسخ من المدينة استفاق باغي سيان من هول الصدمة وعلم ما فعل، فسقط مغميا عليه من شدة الرعب الذي أصابه مع غلمانه، فظنوا انَّه قد مات فتركوه مطروحا على الأرض وهربوا، وظل على حالته عاجزاً عن الحركة حتى مر به حطاب ارمني فقير فقطع رأسه وحمله الى الصليبيين في انطاكية «وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا»[1].

لم يكتفِ الصليبيون بالقتل وتقطيع جثث أهل انطاكية نساءً وأطفالا ورميها في شوارع المدينة، بل انهم وفي ظل تلك الأجواء شعروا بانتعاش روحي وجسدي فاقدموا على اغتصاب النساء الباقيات على قيد الحياة قبل ان يقتلونهم ويبقروا بطونهم بكل وحشية، مما جعل فوشيه ينتقد الحالة بقوله : «عاشروا النساء انتهاكا للشرع»[2]، وهنا يقصد الشرع المسيحي، ولهذا نجد الصليبيين بعد انتصارهم على جيش كربوقا الذي حاول استعادة مدينة انطاكية فانهم عمدوا هذه المرة على بقر بطون النساء اللواتي وجدوها في خيام جيش كربوقا دون اغتصابهم هذه المرة[3]، وأبلغ وصف لهذه المذبحة جاء على لسان مؤرخ مجهول شارك في هذه المذبحة بقوله: «ما تأتي لا أحد قط ان سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة»[4]، واختصر المؤرخ ريموند جيل الحديث عن مجازر القتل والسلب والنهب في مدينة انطاكية بعبارة بليغة بقوله: «ومن السادية أن تحكى القصة وطرق الموت المختلفة»[5]، اما وليم الصوري فقال في وصف الانتصار الصليبي المرعب بقوله: «فقد سَكِرتْ حتى سيوف المنتصرين من شُرب الدماء، وغَدت مُنهكةً من القتل اللامتناهي»[6]، أما عن الرعب الذي نزل على المدافعين عن معرة النعمان وسكانها، وكان السبب المباشر في سقوطها سنة 492هـ/ 1098م على الرغم من مناعة أسوارها واستبسال سكانها في الدفاع والصمود عشرين يوما مستخدمين كل الوسائل المتاحة ومنها سلاح رمي خلايا النحل على المهاجمين وهوا اسلوب دفاعي جديد لم يكن مألوفا[7]، عانى فيها الصليبيون من الجوع الشديد وكادوا يهلكوا ،مما أثارتْ وحشيتهم الى درجة وصلت «حد الجنون اقتطعوا لحم العجز من جثث الشرقيين المطروحة وطبخوه واكلوه ملتهمين اللحم بوحشية قبل أنْ يتم َطهيهُ»[8]، هذا المنظر اثار اشمئزاز الكثيرين من الصليبين والغرباء ومنهم المؤرخ ريموندا جيل المشارك في هذه الحملة، فرسم لنا صورة مرعبة لهذا المنظر بقوله: «يأكلون في تلذذ جثث المسلمين المتعفنة»[9]والمتروكة منذ أكثر من أسبوعين .

إلا أنه خيم الرعب على المدافعين عن المدينة بشكل مفاجئ لعدة اسباب منها مشاهدتهم المناظر الوحشية السابقة الذكر والتعب والاعياء الشديد الذي أصابهم من جراء السهر ليلا ونهارا، فضلا عن سماعهم أخبار مذابح الصليبيين في انطاكية «فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين، وتداخلهم الفشل والهلع وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه، فراهم طائفة اخرى، ففعلوا كفعلهم، فخلا مكانهم أيضاً من السور ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول، حتى خلا السور، فصعد الفرنج إليه على السلاليم، فلما

(1) الكامل في التاريخ :9/ 421.
(2) فوشيه ، تاريخ الحملة ، ص60.
(3) فوشيه الشاتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ترجمة د. زياد جميل العسلي، دار الشروق للنشر ط1(عمان :1990م)، ص63.
(4) تاريخ الفرنجة وغيرهم من حجاج بيت المقدس، ص177.
(5) تاريخ الفرنجة وغيرهم من حجاج بيت المقدس، ص120.
(6) الاعمال المنجزة :1/ 333.
(7) ريموند جيل ، تاريخ الفرنجة ، ص168.
(8) فوشيه الشاتري ، تاريخ الحملة ، ص68.
(9) تاريخ الفرنجة وغيرهم من حجاج بيت المقدس ، ص171.

علوهُ تَحَيَّر المسلمون، ودخلوا دورهم، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة الف وسبوا السبي الكثير»[1]

وبعد اقتحام الصليبين للمدينة اختفى سكانها وخلت الشوارع من شدة الرعب الذي أصابهم «اختباء سكانها في كهوف تحت الأرض»[2]. واستخدم الصليبيون فيها دخان النار والابخرة الكبريتية لإ خراجهم ،وبلغ الرعب اشدهُ عند الأسرى المسلمين الذين رموا أنفسهم في الآبار ليموتوا، وهكذا تم ابادة سكانها المسلمين «افناء مواطنيها عن بكرة ابيهم»[3] وتم تأكد الخبر من قبل المؤرخين المسلمين «قتلوا أغلب أهلها»[4]، ثم سحبت الجثث الى خارج أسوار المدينة وبقرت بطونهم وجعلت أكوام وأحرقت بحثاً عن العملات النقدية المعدنية[5]، وأستغرب الصليبيون أنفسهم عن استحكام الرعب في قلوب المسلمين ونفوسهم الى درجة جعلت المؤرخ الصليبي ريموند المشارك في هذه الحملة وشاهد العيان على أحداثها الى توجيه انتقاد حاد إلى المسلمين وعجزهم عن الدفاع عن مدنهم بقوله: «ألقى الرعب في قلوب المدافعين، حتى انهم في تعجلهم الفرار تركوا موتاهم بدون ان يدفنوهم»[6]، وهذا ما جعل سكان مدينة الرملة يتركون مدينتهم قبل وصول الصليبين إليها نتيجة الفزع الذي اصابتهم «تركوا قلاعهم واسلحتهم، وأيضا الكثير من الحبوب في الحقل، ومحصولات محصودة»[7] .

(1) ابن الاثير ، الكامل :9/ 423.
(2) ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة ،ص169.
(3) فوشيه الشاتري ، تاريخ الحملة ، ص 68.
(4) مجهول، الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق سهيل زكار، مكتبة دار الملاح (دمشق:1981)، ص62.
(5)ريموند جيل ، ص169.
(6) تاريخ الفرنجة ، ص185.
(7) ريموندا جيل ، ص225.

وجاءت المذبحة الكبرى التي ارتبط اسمها بالحملة الصليبية الأولى وهي مذبحة بيت المقدس في 11/ يوليو من سنة 492هـ/ 1098م، والتي أثارت موجة من الرعب في صفوف المسلمين في بلاد الشام عامة ولعبت دورا غير مباشر في سقوط المزيد من المدن، إذْ سالت فيها انهار من دماء المسلمين الطاهرة على تلك البقعة المقدسة[8]، لم يفرق فيه الصليبيون بين شيخ لهرمه أو عالم لفضله ولا طفلاً لضعفه ولا أمراءه لعجزها، ولا حتى اسيراً لعجزه فيذكر لنا بطرس توديبود طريقة مرعبة اتبعها الصليبيين في اعدام أحد الأسرى المسلمين بتقيد يديه وقدميه وقذفه بواسطة اله تسمى المقذاف باتجاه أسوار بيت المقدس قبل اقتحامه مما ادى الى تهشم عظامه وتمزق جسده إربا إربا»[9].

وقد وصف بشاعة هذه المذبحة المؤرخون الغربيون المشاركون بهذه الحملة، عندما اصدر تنكريد اوامره بان يتوجه المسيحيون الى المعبد لقتل المسلمين فصعدت مجموعة من الصليبيين سطح المعبد وهاجموا المسلمين المحتشدين وعملوا على القتل العشوائي بغية إبادة جميع الموجودين ، مما دفع البعض إلى أنْ يلقي بنفسه من فوق سطح المعبد ولقي اخرون حتفهم من جراء التدافع[10]، اما فوشيه فاقر صراحة الى استمرار عملية القتل أسبوعا كاملا وقدر عدد من قتل ب(70000 الف مسلم)[11]، «منهم جماعة من ائمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف»[12]وبلغ ارتفاع الجثث عند جمعها بمستوى سطح البيوت وتم حرقها، وتفاخر شاهد عيان بهذه

(8) وليم الصوري ،1/ 377-378 .
(9)تاريخ الرحلة الى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية ط1(الاسكندرية:1998م)، ص 317.
(10) بطرس توديبود، تاريخ الرحلة الى بيت المقدس ، ص319.
(11) تاريخ الفرنجة ، ص75 .
(12) ابن الاثير ، الكامل :9/ 426.

المذبحة بقوله: «فهل شاهد احد أو سمع عن مثل محرقة الكفرة هذه والله وحده كم يعلم عددهم لان لا احد سواه يعلم ذلك»[1].

ولم تقتصر هذه المذبحة على المسلمون فقط بل امتدت لتشمل اليهود ايضا «ولما ملكوا القدس جمعوا اليهود الى كنيستهم، واحرقوها عليهم»[2]، وبشهادة المؤرخة البيزنطية انا كومينا عندما وصفت ذلك بقولها: «لما استولوا عليها فتكوا بأغلب من كان بها من المسلمين واليهود»[3]، وقد احتار المؤرخ الفرنسي فوشيه الشاتري في تصوير هذه المذبحة بقوله: «لو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى. ماذا اقول؟ لم يبق منهم احد ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً»[4]، كما انه لم يخفي دهشته وهو يشاهد الصليبين وهم يبقرون بطون ضحاياهم من المسلمين بعد ان قطعوا رؤوسهم ويمزقون امعائهم بحثا عن الدنانير الذهبية ومن ثم حرقها ونبش رمادها والبحث فيه[5].

استمتع الصليبيين لوقت طويل بتعذيب المسلمين بكل الوسائل الوحشية التي اعتادوا على ممارستها، كما يصف لنا المؤرخ المسلم اسامة بن منقذ عملية تعذيب وحشية لفارس مسلم وقع في ايديهم «فأخذوه اسيراً وعذبوه انواع العذاب وارادوا قلع عينه اليسرى، فقال لهم دنكري لعنه الله اقلعوا عينه اليمنى حتى اذا حمل الترس استترت عينه اليسرى فلا يبقى يبصر شيئا، فقلعوا عينه اليمين كما امرهم، وطلبوا منه ألف دينار وحصانا ادهم لوالدي من خيل خفاجة»[6]، ولم يسلم حتى الاموات من وحشيتهم فتم حرق جثثهم، واصبح منظر تكدست الجثث المبتورة الاطراف او المقطوعة الرؤوس المتدحرجة والايادي والاقدام في جميع انحاء شوارع وبيوت المدينة والصليبين يتنقلون ذهاباً واياباً من فوقها دون اي اكتراث، اما في معبد سليمان المقدس خاض الفرسان اللاتين بخيولهم في دماء المسلمين الملتجئين اليه كآخر ملاذ يستعطفون به مشاعر الصليبين الدينية والانسانية لرحمتهم والابقاء على حياتهم وهم مستضعفين لا حول ولا قوة لهم ولكن دون جدوى» حتى وصل مستوى الدم الى ركب وسروج الخيول»[7]، وقد اختصر لنا احد المؤرخين المسلمين المجازر التي ارتكبت فيه واثرها على المسلمين بقوله: «فلم ير في الاسلام مصيبة اعظم من ذلك»[8].

وبعد ذلك واصل الصليبيين بقيادة بالدوين الاول Baldwin I (495-512هـ/ 1101-1118م) هجومهم الوحشي على مدن الساحل الفلسطيني، فاستولوا على مدينة عكا في 21مايو 1104م بعد حصار دام عشرون يوما من الضغط البري دون انقطاع استسلمت فيها المدينة مقابل ضمان سلامة مغادرة سكانها مع متاعهم[9]، ولكن كعادة الصليبيين لم يحترموا الاتفاق واعملوا القتل في غالبية سكانها الابرياء، وسلبوا ونهبوا ممتلكاتهم، و المصير نفسه واجه سكان مدينة بيروت التي سقطت بعد حصار شهرين «وقاموا بقتل عدد كبير من سكانها»[10]، اما مدينة ارسوف

(1) بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة ،ص319.
(2) مجهول ، الاعلام والتبيين ، ص 66.
(3) الالكسياد ، ترجمة حسن حبشي ، المجلس الاعلى للثقافة ، (2004م)، ص436.
(4) تاريخ الحملة ،ص75 .
(5) تاريخ الحملة الى القدس ، ص75.
(6) الاعتبار ، دار الهلال (القاهرة :2002م)، ص77.
(7) ريموند ،تاريخ الفرنجة، ص374.
(8) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي ابو مجير الدين الحنبلي (ت:928هـ)، الانس الجليل تاريخ القدس والخليل، اعداد وتحقيق عدنان يونس عبد المجيد ابو تبانه ، مكتبة دنديس(عمان : 1999) : م1/ 450
(9) يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ترجمة وتعليق د. سعيد البيشاوي، ط1 دار الشروق (عمان :1998م)، ص33.
(10) يعقوب الفيتري ، تاريخ بيت المقدس ، ص33ـ34.

وهي ميناء بحري مهم بالنسبة للمسلمين، استعان الصليبيون بالأسطول الجنوي لحاصرتها بواسطة 34 سفينة بحراً، فضلاً عن حصارهم لها براً، وعلى الرغم من قوة تحصينها الا ان الرعب سيطر عليها مما جعلها تشعر بالعجز عن الدفاع عن نفسها خاصة بعد حادثة خروج الف شخص من سكانها وتعرضهم لهجوم الفرسان الصليبيين» واعملوا فيهم القتل وشوهوا اجساد اكثر من خمسمائة منهم بقطع انوفهم وايديهم وارجلهم وتركهم في الارض يسبحون في دمائهم»[1] كانت مذبحة مروعة، واخذت المدينة بالتفاوض على الاستسلام في اليوم الثالث من حصارها وسكانها في غاية الغم والاكتئاب والانكسار فغادروها الى عسقلان سنة 493هـ / 1100 م ودخلها الصليبيون والجنويون[2].

وجاء بعد ذلك الزحف نحو مدينة قيسارية (القيصرية) التي سقطت بعد حصار خمسة عشر يوما، ليواجه سكانها الموت إذ قتل معظم رجالها بطريقة وحشية يصفها فوشيه بقوله «كان يضرب احد رجالنا بقبضته عنق بعض الشرقيين طرح من افواههم ما بين العشرة والستة عشراً ديناراً ذهبياً، وقد خبأت بعض النسوة الدنانير الذهبية دون حياء داخل احشائهن بطريقة خبيثة يمنعني الحياء من ان اذكرها»[3]، ونحن نتساءل اي حَياء للصليبيين وهم يغتصبون النساء ويبقرون بطونهم ؟

لقد سيطر الرعب والخوف والتشاؤم على جميع سكان بلاد الشام وفلسطين وحتى مصر من جراء المجازر التي ارتكبها الصليبيون في كل مدينة اوقريه استولوا عليها او مروا بها، وقد وصف احد المؤرخين الغربيين المشاركين في هذه الحملة الرعب الذي اصاب المسلمين واثره في سقوط المدن بقوله: «عندما صحنا صيحة الحرب، ساعدنا يآرب، ساعدنا يآرب، مات حوالي مائة من المسلمين الذين دَّب في قلوبهم الرعب، اما لخوفهم الشديد او لضغط زملائهم عند ابواب القلعة»[4]، و نتيجة لما سبق ذكره شاع الرعب في صفوف المسلمين الى درجة «جعلهم يعتقدون اننا كنا نتمتع بقوة كبيرة ونعتزم تدمير بلادهم بلا رحمة»[5]، فتسابق حكام باقي المدن الى دفع مبالغ كبيرة من الاموال مثل حاكم طرابلس وسيد جبلة، اضافة الى تنصر اعداد غفيرة من سكان مدينة صور[6].

والمثير للاستغراب حالت الفخر وتشفي في كتابات المؤرخين الغربين المعاصرين لهذه الحملة بالفظائع التي ارتكبوها ضد المسلمين، وتفاخروا بالرعب الذي خلقوه في نفوسهم ، فيذكر ريموند «وفي راي انه في هذا عدالة الهية تتمثل فب ؟؟ ان يتلقاها معبد سليمان دم المسلمين الذين سبو ا الرب هناك سنوات كثيرة ،وامتلأت بيت المقدس الان بالجثث وتلطخت بالدماء[7] أما فوشيه الشاتري يذكر: «كان المواطنون الشرقيون قد ولوا الادبار لما سمعوا الشائعات بمقدمنا ولم يبق الا اولئك الذين فاقوا الهباب سوادا . فتركناهم هناك وعاملناهم باحتقار كما لو كانوا عشب البحر»[8]،

(1) البرت فون اخن، تاريخ الحملة الصليبية الاولى، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج51 (دمشق :2007)، ص170؛ محمد فتحي الشاعر، احوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099ـ1187م، منشورات مكتبة دار الثقافة (بغداد :1989م)، ص9.

(2) فوشيه ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص113، محمد فتحي، احوال المسلمين ، ص9 .

(3) فوشيه ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص115 .

(4) ريموند ،تاريخ الفرنجة ، ص184.

(5) ريموند ، تاريخ الفرنجة ، ص 186ـ 189.

(6) ريموند ،تاريخ الفرنجة ، ص220.

(7) تاريخ الفرنجة ،ص347.، وليم الصوري ،الاعمال المنجزة:1/ 436.

(8) فوشيه ، تاريخ الحملة الى القدس ،ص109 .

اما وليم الصوري فيقول: «مجرد النطق باسم المسيحيين يثير الرعب لدى شعوب لا تعرف الرب»[1]،

وفي نفس الوقت تساءل المؤرخ الفرنسي فوشيه «لماذا خشيت كل هذه الامم وهذه الممالك من الهجوم على مملكة صغيرة وشعب متواضع؟ لماذا لم يجمعوا من مصر ومن فارس ومن بلاد ما بين النهرين ومن سوريا مئة ضعف مئة الف مقاتل ليزحف بشجاعة علينا ونحن اعداؤهم؟ لماذا لم يدمرونا ويلتهمونا مثل جراد يفوق الحصر عدده في الحقل الصغير فيمحون ذكرنا عن وجه الارض، ويجيب على تساؤله بطريقة دعائية ذات تفسير ديني روحاني بقوله: «حقا انها لمعجزة عجيبة واضحة لكل من يرى، اننا عشنا بين الاف مؤلفة وقهرناهم وجعلنا بعضهم اتباعا ودمرنا غيرهم بالنهب والاسر»[2].

المبحث الثاني
الرعب الذي احدثته الحملة الصليبية الثانية
The Second Crusade (541-544هـ/1147-1149م)

يذكر ابن القلانسي ان المسلمين في بلاد الشام خاصة تابعوا بقلق وحذر اخبار هذه الحملة التي بدأت تتواصل طيلة عام 542هـ/ 1148م ، بوصول ملك الالمان ولويس ملك فرنسا وقادة كبار لم يذكر اسمائهم الى مدينة القسطنطينية «في العدد الذي لا يحصر والعُدد التي لا يحرز لقصد بلاد الاسلام،... واستصحبوا من اموالهم وذخائرهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى بحيث يقال ان عدتهم الف الف عنان من الرجالة والفرسان وقيل اكثر من ذلك»[3]، وقد اكد لنا وليم الصوري المعاصر لهذه الاحداث والذي يمثل وجهة نظر الصليبين سريان هذه الاخبار وما سببته من رعب وحاول تضخيمها الى درجة انه اقر بالمبالغة فيها بقوله: »وسرت الاشاعات بوصول حشود لم ير مثلها، لا في عددها ولا في عُدَدَها، حتى قيل إنَّ عدد الفرسان فقط غطى وجه الارض إلى حد أن اكبر الأنهار لا يكاد تكفي مياهه لشرب هذه الحشود، وان اعظم الاراضي خصبا لا تكفي لا مدادهم بالمؤن، وعلى الرغم مما حملته هذه الاقاويل من المبالغات، فان حجم الحقيقة في حد ذاتها، يلقي الرعب في قلوب اعظم الزعماء والقادة ممن لم يكونوا يدينون بالنصرانية»[4] .

قدر وليم الصوري اعداد المشاركين في هذه الحملة من جيش الألمان، قرابة السبعين الفا من الفرسان المدرعين والعدد نفسه من جيش الفرنسيين فضلا عن افة الى أعداد من النساء والأطفال والخيالة الخفاف والمقاتلين المشاة[5]، اي ان مجموع الفرسان المشاركين في هذه الحملة فاق المائة واربعون الفا وهو مبالغ فيه لأغراض دعائية، كما وصف الرعب الذي سببه خبر «وصول الملك لويس سبب هلعا شديدا بين صفوف اعدائنا، الى درجة انهم لم يضعف ثقتهم بقدراتهم فحسب ،بل فقدوا الامل بالحياة أيضا»[6].

هذه الأخبار جعلت ولاة المدن القريبة من حدود بلاد الروم في حالة تأهب قصوى لمراقبة الطرق والمعابر التي من المتوقع وصول الصليبين منها، لصد غاراتهم وأعاقت مسيرتهم وقد نجحوا في تخريب الطرق التي سلكوها، فأصابهم شدة من نقص الأقوات والأعلاف لحيواناتهم فهلكوا وهلكت أعداد كبيرة منهم بسبب الجوع والامراض، وعندها تنفس المسلمين الصعداء كما يصف لنا ابن القلانسي ذلك بقوله: «سكنت النفوس بعض السكونْ وركنتْ الى فساد أحوالهم

(1) الاعمال :2/ 979.
(2) فوشيه ، تاريخ الحملة الى القدس ،ص112.
(3) ذيل تاريخ دمشق ،ص 297.
(4) الاعمال المنجزة :2/ 761.
(5) وليم الصوري ، الاعمال المنجزة :2/ 761.
(6) الاعمال :2/ 773.

بعض الركون وخَفَّ ما كان من الانزعاج والفرق مع تواصل أخبارهم»[1].

وهكذا تجاوز المسلمون الرعب والخوف الذي أصابهم من جراء الصدمة الأولى للحملة الصليبية الاولى كما اشار صراحة الى ذلك وليم الصوري في اعقاب الهزيمة الكبرى للفرنسيين بقيادة لويس بقوله: «كانوا يبعثون الهلع في قلوبها من قبل»[2] ولعقوا جراحاتهم العميقة البليغة من جرائها، وبدأت الامة الإسلامية تستجيب لتلك التحديات شيئاً فشيئاً، وتتعافى وتستفيق من هول الصدمة فأنجبت لنا قادة المقاومة لتنظيم المواجهة مع البربرية الغربية الوحشية المتعطشة آنذاك لدماء المسلمين بشكل خاص، والحالمين بإرعابهم الى حد تنعدم فيها مقاومتهم لعمليات النهب والسلب والاغتصاب لمقدراتهم المادية والبشرية، وهنا برز القائد عماد الدين زنكي(521-541هـ/ /1127-1146م) حاكم مدينة الموصل، الذي كان عسكريا من الطراز النادر له من الحزم والشجاعة والبطش بأعدائه ما جعله يتصدر قائمة زعماء للعالم الاسلامي في مقاومة الغزاة الصليبين آنذاك[3] كل ذلك اثارت غضب المؤرخ اللاتيني وليم الصوري فوصفه بعبارة «اكبر مضطهد للعقيدة المسيحية»[4] وباللعين تارة اخرى، ومع ذلك لم يستطع اخفاء اعجابه به فقال عنه مادحا: «كان زنكي تركيا قويا»[5] وفي موضع اخر وصفه «الامير العظيم زنكي»[6]، وفي وصف الرعب الذي سببه للصليبيين وهو يحاصر مدينة الرها قال: «وروعت قلوب جميع المؤمنين في كل مكان»[7]، ومن هنا كانت البداية الفعلية لتجاوز حاجز الرعب الذي شل قدرات العالم الإسلامي وجعله عاجز عن مواجه الغزوة الصليبيين .

وهكذا بدأت معادلة الرعب بالانعكاس على الصليبيين (اللاتين) انفسهم المتدفقين على المشرق العربي، فتمكن عماد الدين زنكي بوقت قصير من استعادة مدينة الرها (سنة 539هـ/ 1144م) ذات الاهمية الدينية والاستراتيجية واذاق فيها اللاتين من كاس الرعب والخوف الذي اشربوه للمسلمين وجعلهم عاجزين عن الاحتفاظ بالمدن التي احتلوها، كما يشرح لنا وليم الصور ذلك بقوله: «عندما لا يكون احد بين المحاصرين راغبا في تولي القيام بدور الدفاع وعندها لا تجدي الاسوار والابراج والشرفات شيئا لأنه لا يوجد من يحميها»[8] كل ذلك حدث بسبب الرعب الذي سيطر عليهم كما سيطر من قبل على المسلمين، وركز وليم الصوري على اظهاره بمظهر القاتل والجلاد للامة المسيحية في كل مكان حل به، واصفاً اياه بانه يقتل كل من صادفه دون استثناء «يقتلون الارملة والغريب ويميتون اليتيم»[9] وهذا الوصف فيه تجني كثير عليه والتشويه لسمعته بدوافع عنصرية، ولا غرابة ان نجدهُ يتشفى بارتياح عند ذكر خبر اغتياله وهو يحاصر قلعة جعبر واردا الخبر بقوله: «ولدى وصول نبا وفاته علق واحد من شعبنا على عملية اغتياله قائلاً: يا لها من مصادفة سارة قاتل مجرم يحمل اسم سفاح اصبح مضرجا بدمه»[10] وهنا من حقنا ان نتساءل عن الازدواجية لدى وليم الصوري وغيره من المؤرخين الغربيين المرافقين للحملة الصليبية الأولى فيتعاطفون مع قتلاهم ويبكون على موت النساء

(1) ذيل تاريخ دمشق ،ص 297.
(2) الاعمال :2/ 770.
(3) مجهول ،الاعلام والتبيين ،تحقيق سهيل زكار ، ص 45.
(4) الاعمال :2/ 753.
(5) الاعمال المنجزة :2/ 737.
(6) الاعمال :2/ 738.
(7) وليم الصوري ، الاعمال :2/ 739.
(8) الاعمال :2/ 738.
(9) وليم الصوري ، الاعمال :2/ 739.
(10) وليم الصوري ، الاعمال :2/ 742.

والاطفال الصليبيين على يد زنكي، بينما كانوا يحتفلون ويتفاخرون جهرا بمذابحهم ضد المسلمين وعلى راسها مذبحة بيت المقدس، واعترف وليم الصوري صراحةً بالرعب الذي اصاب الصليبيين على يد عماد الدين زنكي «سبب هلعا، وهلك العديد من الناس بشكل بائس في وسط الحشد المتدافع من الناس، وكان بين الذين ماتوا بهذه الطريقة هوغر رئيس اساقفة الرها المبجل جدا «[1].

ثم جاء ابنه نور الدين زنكي محمود (541-570هـ/ 1146-1174م) ليتولى مهمة مقاومة الصليبين بعد وفاة والده، ولهذا وصفه احد المؤرخين الغربيين بقوله: «كابيه مضطهد جبارا للعقيدة المسيحية وللاسم المسيحي»[2] تسبب بمحن شديدة للمسيحيين بدخوله مدينة الرها سنة 541هـ / 1146م بعد أبيه، وقد صور لنا ابن القلانسي قيمة هذا الانتصار واثره على المسلمين بقوله: «وسرت النفوس بهذا النصر بعد الحزن والاختزال وقويت القلوب بعد الفشل والاختزال وانكفأ المسلمون بالغنائم والسبي إلى حلب وسائر الاطراف»[3] ونشر رعبا بالغا لسكانها كما وصفه وليم الصوري بقوله: «منظر يرثى له ،ومؤسف لا يمكن وصفه ...، حيث هلك بعضهم تحت حوافر الخيول، بينما خنق آخرون حتى الموت بعد ما سحقهم الحشد المتدافع، وسقط اخرون بسيوف الاتراك العديمة الرحمة «[4] ونتسأل بدورنا هل كانت سيوف الصليبين رحيمة مع المسلمين الآمنين في نيقيه وانطاكية ومعرة النعمان وبيت المقدس وغيرها من المدن التي احتلوها وأبادوا سكانها ؟؟؟ .

هذه الأحداث كانت السبب في قيام الحملة الصليبية الثانية على المشرق العربي الإسلامي فقد وصفَ الحادثة من قبل المؤرخين الغربيين المعاصرين بالعبارة التالية: «ورويت اخبار تلك الحادثة المشؤمة، انتقل الخبر إلى الغرب، وعم انتشاره فيها، وسرت هناك اشاعات ان ابناء الضلال من التركمان لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة الرها، لكنهم شرعوا في تدمير بقية المدن»[5]، واستخدمت شعارات دعائية لتعبئة الغرب الاوربي[6] تحت عنوان «رعايا المسيح يعانون الان من محن شديدة بسبب الحروب المستمرة واعمال الغارة المتكررة عليهم»[7]، وقد شارك فيها كونراد إمبراطور الرومان ولويس ملك فرنسا وملك الألمان وبرعاية برنارد صاحب دير كليرفو .

وقد وصف لنا وليم الصوري الرعب الذي أصاب الفرنسيين وملكهم المشاركين في هذه الحملة بقوله: «ومزق الذعر قلوب العساكر، ولم يكن في المعسكر مكان لم يكن ممتلئا ببكاء الاصحاب والاهل والرفاق، فواحد فتش عن والده واخر عن سيده، وامرأة كانت تبحث في كل مكان عن ولدها، واخرى عن زوجها، وامضى هؤلاء الذين لم تثمر اعمالهم بحثهم عن شيء، امضوا ليلتهم بلا نوم، وكانوا مثقلين بالخوف والقلق من شر ما وقع على المتغيبين»[8] وجاءت الهزيمة الساحقة التي لحقت بالفرنجة الى درجة زوال هيبتهم ومفاخرهم وتلطخت سمعتهم «وغدت منذ ذلك اليوم اضحوكة ووسيلة هزء في اعين الشعوب المندسة، التي

(1) الاعمال :2/ 740.
(2) وليم الصوري ، الاعمال :2/ 791.
(3) ذيل تاريخ دمشق ، ص 288.
(4) الاعمال :2/ 755.
(5) وليم الصوري ، الاعمال 2/ 758.
(6) ينظر علي سلطان عباس، الدعاية والاعلان الصليبي لتعبئة الغرب الاوربي لغزوا المشرق العربي الاسلامي، بحث منشور مجلة العلوم الانسانية كركوك ، مجلد 14 العدد سنة 2029م، ص187.
(7) وليم الصوري ، الاعمال: 2/ 758.
(8) وليم الصوري ، الاعمال :2/ 771.

كانوا يبعثون الهلع في قلوبها من قبل»[1].

وجاء السلطان صلاح الدين الايوبي لينشر الرعب في نفوس الصليبيين الى درجة انه صنف من قبل المؤرخين الغربيين بقوله: «انه العدو الاشد خطرا واخافة بالنسبة لنا»[2]وعرف ايضا بانه: «العدو المخيف»[3] «وعدونا الاكثر ترويعا»[4]، وقد صور لنا المؤرخ وليم الصوري وهو احد ابرز مؤرخي الحروب الصليبية المعاصر لها، ومن اشدهم تعصبا ضد المسلمين الرعب الذي اصابهم في مواجه السلطان صلاح الدين لاسيما بعد ضم مدينة حلب ذات الأهمية في مواجهة الوجود الصليبي بقوله: «استولى رعب مضاعف على شعبنا لدى سماعه لهذا النبأ»[5] وراح يصف لنا عدم فقدان الصليبيين زمام الامور في المواجهة فساق لنا اكثر من حادثة في هذا المجال نذكر منها، عندما حاصر مدينة القدس اول مرة سنة 579هـ/ 1183م وصف الرعب الذي اصاب سكانها بحيث عجزوا تماما عن المواجهة حتى في عاصمة مملكتهم بقوله: «استحوذ الرعب والباس على السكان البائسين الى درجة انهم لم يجرؤوا على اظهار انفسهم حتى عندما تدلى افراد العدو بواسطة الحبال وقتلوا بكل وقاحة الحيوانات التي كان اللاجئون قد جلبوها الى داخل الخندق حول القلعة، وقطع الاتراك الذبائح الى قطع لحم كبيرة، دون مواجه ادنى مقاومة، ودون ان يتعرضوا لأي خطر، وذلك ليستخدموها كطعام لهم»[6]، واسترسل بالحديث عن الاسترخاء والامان الذي تمتع به المسلمين المحاصرين للقدس حتى ان الطباخين والخبازين في الجيش كانوا يمارسون اعمالهم في اعداد الطعام للمقاتلين في بيوت فارغة هجرها سكانها «بكل حرية هناك وسط وسائل راحة من جميع الأنواع»[7]، وعندما حاول الصليبيون المحاصرون في قلعة المدينة ان يشيدوا لهم الة حربية خاصة بهم للمواجهة، رد عليهم جيش صلاح الدين بكل ثقة وسرعة مهنية ودقة تصويب بقذف حجارة بواسطة المنجنيق «بخبرة متناهية الى درجة ان المسيحيين تخلوا عن المحاولة بعد ما روعتهم الضربات المستمرة مع الخوف من الموت الذي بدا ان كل حجر كان يهدد به»[8]، وهكذا وصل الصليبيون الى حالة من الرعب «سببت ارتجاف الجنود برعب، على مهاجمة الذين تسللوا من مخابئهم لقذف الاسلحة او القذائف الصخرية من الشرفات، او للتحديق بالقوات المحاصرة، فقد ارتجف برعب امام ضربات وزئير القذائف المقتربة، وبدا القصف كالرعد حتى هربوا الى الغرف والحجر الاكثر عمقا ،والتي كانت تعد أكثر الأماكن انعزالا وكانوا في ترقب دائم خشية ان يتهدم البناء وينهار عليهم، وانتظروا من لحظة الى اخرى الضربة الصاعقة»[9] .

وجاءت الفرصة المناسبة لصلاح الدين الأيوبي لإنهاء مسلسل الرعب الذي سببته مملكة بيت المقدس اللاتينية منذ تأسيسها في بلاد الشام، عندما اقدم حاكم الكرك الصليبي رينودي شاتيون (ارناط) Renadde Chatllon[10] بانتهاك الهدنة الموقعة مع السلطان صلاح الدين الايوبي (س/ ذ) وهاجم قوافل الحجاج المسلمين العزل المتجهة من القاهرة إلى دمشق سنة 582هـ/ 1186م ومثل بأجساد الاحياء منهم

(1) وليم الصوري ، الاعمال 2/ 770.
(2) وليم الصوري ، الاعمال : 2/ 981.
(3) وليم الصوري ، الاعمال : 2/ 982.
(4) وليم الصوري ، الاعمال : 2 / 1014.
(5) الاعمال :2/ 1058.
(6) الاعمال :2/ 1069ـ1070 .
(7) الاعمال :2/ 1070.
(8) وليم الاعمال :2/ 1070.
(9)وليم الصوري ، الاعمال :2/ 1070 .
(10) علي سلطان عباس ، امير الكرك الصليبي رينودي شاتيون (ارناط)، بحث منشور في مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية مجلد 13 العدد92006م،ص412.

والاموات وبالغ في اذلالهم والتطاول على شخص النبي محمد (ﷺ) مستهزأ بقوله: «قولوا لمحمد يخلصكم»[1]، هذا التهور من قبل ارناط لإحداث رعب في صفوف المسلمين انقلب عليه وانتهى بتحرير بيت المقدس سنة 583هـ بمعركة حطين[2]، مما ولد ردة فعل عنيفة لدى الغرب الأوربي الكاثوليكي، أسفرت عن حملة صليبية ثالثة .

المبحث الثالث
الرعب الذي احدثته الحملة الصليبية الثالثة
The Third Crusade (587-588هـ/ 1189-1192م)

وصلت اخبار الضربة القاصمة التي وجهها السلطان صلاح الدين الأيوبي لِمملكة بيت المقدس اللاتينية الكاثوليكية بتحرير بيت المقدس سنة 583هـ/ 1187م، مثل الصاعقة على ملوك الغرب الاوربي الكاثوليكي من خلال رئيس اساقفة مدينة صور[3] المدعو جوسياس (جوشيوس Jogius) الذي وصل الى الغرب الاوربي على ظهر احدى السفن "حاملا نبا هذه الطامة الكبرى التي نزلت بالعالم المسيحي"[4] وهنا بدأت الحملة الدعائية والاعلامية التي شارك بها بطريك بيت المقدس وحاكم مدينة صور المراكيز كونراد دي مونتغرات فضلا عن مجموعة من رجال الدين المسيحيين في المشرق لإثارة الحماس الديني لدى ملوك أوربا، وعامة شعوبها عبر وسائل دعائية متنوعة[5]، فخرجت جموع غفيرة من الصليبيين على اختلاف اعمارهم واجناسهم، نساء ورجالاً تلبية لهذه النداءات[6]، حتى وصفها ابن الاثير بقوله: «فخرجوا على الصعب والذلول برا وبحرا من كل فج عميق، ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين، وهلك ملك الالمان لَمَا خَرَجَ ،... الى الشام وإلا كَانَ يقال: ان الشام ومصر كانتا للمسلمين»[7].

وقد شارك في هذه الحملة معظم ملوك الغرب الاوربي آنذاك وعلى راسهم فردريك بربروسا Frederick Barbarossa (1152-1190م) امبراطور المانيا الذي لبس لباس الحجاج وحمل شعيرة الحج المقدس ونبذ ولو ظاهريا جميع مغريات الحياة آنذاك[8]، ويصف لنا المؤرخ ابن الأثير ما سببته هذه الحملة من رعب للمسلمين بقوله: «لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان ايقنا اننا ليس لنا بالشام مقام»[9]، وقد استخدم الامبراطور فردريك بربروسا وسيلة ارسال الرسائل التي تحمل التهديد والوعيد الى صلاح الدين الايوبي لأثارة الرعب و النيل من معنوياته العالية بعد تحرير بيت المقدس وزعزعة استقرار الحالة النفسية لجيشه تمهيدا للهجوم لاحقا عليه، وهذا ما يفسر لنا عدم ذكر المصادر العربية المعاصرة اي ذكر لهذه الرسائل، واقتصر ذكرها لدى مؤرخ مجهول مرافق للحملة الصليبية الثالثة بإيرادها بقوله: «من فردريك

(1) ابن شداد بهاء الدين ابو المحاسن يوسف، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة :2000م) ص51.
(2) الاصفهاني، ابي عبدالله محمد بن محمد بن حامد، الفتح القسي في الفتح القدسي، قدم له ووضع حواشيه ابراهيم شمس الدين، ط1دار الكتب العلمية (بيروت :2003م)، ص85.
(3) مدينة مشهورة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد، وهي حصينة جدا، وكانت ثغرا للمسلمين . ياقوت الحموي ،معجم البلدان :1/ 433.
(4) مجهول، الحرب الصليبية الثالثة صلاح الدين وريتشارد، ترجمة حسن حبشي الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة: 2000م): 1/ 54.
(5) للمزيد ينظر: علي سلطان عباس، الدعاية والاعلان الصليبي ، ص193.
(6) علي سلطان ، مدينة عكا ، ص49.
(7) ابن الاثير ، الكامل :10/ 184.
(8) مجهول ، الحرب الصليبية الثالثة ، ص 57 .
(9) ابن الاثير ، حوادث سنة 586هـ.

الذي هو برحمة الرب امبراطور الرومان، والغالب على الدوام بأمره، والقاهر الجبار لأعداء الامبراطورية، الى صلاح الدين رئيس المسلمين الذي سوف يفر من بيت المقدس فرار فرعون الشهير ذات مرة«[1]، ويصور لنا فردريك في هذه المقدمة لرسالته ثِقَتِهِ العالية بتحقيق النصر وحتمية فرار صلاح الدين وجيشه من بيت المقدس وهو ما لم يتحقق على ارض الواقع، وفي هذه الرسالة نجد ايضا استعراض فردريك قدراته العسكرية «وهل غاب عنك او فات علمك ان ارمينيا وغيرها من الاقطار التي لا يحصيها العد انما هي خاضعة لنفوذنا؟ ان هذا امر معروف تمام المعرفة للملوك الذين ارتوت السيوف الرومانية من دمائهم، وسوف تنبؤك تجربتك الشخصية ما الذي سوف تفعله نسورنا المنتصرة بعون الرب، وما سوف تفعله كتائب الامم المختلفة، وما يسفر عنه الغضب التيوتوني حين تشهر السيوف»[2]، ولإثارة الخوف والرعب في نفس صلاح الدين الايوبي حسب ظنه اخذ يعدد الامم المكونة لفصائل جيشه البري الذي سيتوجه معه الى المشرق العربي الاسلامي ذاكرا ميزات كل فصيل منهم: الأستوريون ويصفهم بأنهم لم يهزموا سابقا والفرانكيون والرانكونيون المتربصون بالسيوف لأعدائهم، والثورنجيون، والوستفاليون، والبرابانيون يصفهم بخفاف الحركة، واللوثاريون مساعير الحروب الذين لا يعرفوا الاستسلام، والبرجنديون، وجيوش الالبان والفريزيون المندفعون بلهفة الجنون للقتال، والبوهيميون عشاق الموت، والبولونيون الوحوش الضارية، واللمبارديون وغيرهم فضلاً عن اساطيل بحرية من البندقية والبيازيين ، واخْتتم رسالته بالتهديد مسميا يوم انطلاقه الى المشرق بيوم الفرحة الغامرة والسرور لتحقيق النصر متهماً صلاح الدين باستصغار جيوش الامبراطورية الرومانية المقدسة والاستخفاف بها «وهي الايدي التي طال اتهامك اياها بانها قد ضعفت ودب فيها الوهن، وابلى كر السنين جدتها وانهك قواها»[3]، وقد اورد المؤرخ مجهول اجابة صلاح الدين على رسالة التهديد السابقة في غاية الثقة والدبلوماسية والدقة و الاجابة على كل فقرة وردت فيها بالتفصيل، وعدا اياه بإكمال تحرير المدن الثلاثة المتبقية من مملكة بيت المقدس اللاتينية في المشرق وهي صور، وطرابلس وانطاكية[4].

وان المتتبع لأخبار هذه الحملة الصليبية يجد ارتباط اسمها، بمذبحة عكا سنة 587هـ/ 1189م، كما ارتبط اسم الحملة الصليبية الأولى بعدة مذابح منها مذبحة انطاكية ومعرة النعمان والمذبحة الكبرى في بيت المقدس، والغرض من هذه المذابح ضد المسلمين اثارة الرعب في قلوبهم لتسهيل السيطرة عليهم، والاستيلاء على المزيد من المدن الإسلامية بأسهل الطرق، وتفاصيل مذبحة عكا اقدم ملك الانكليز ريتشارد قلب الاسد (585-596هـ/ 1189-1199م) Richard Coeur -de-Lion بإعدام 3000 اسير مسلم وقعوا بيده عند استيلائه على مدينة عكا[5]، وجرت بخصوصهم مباحثات مع صلاح الدين الايوبي للمبادلة مع اسرى وفداء الباقي فضلاً عن اعادة صليب الصلبوت، إلا أنَّ همجية ريتشارد الذي استاء كثير من عدم احراز تقدم في عملياته العسكرية باتجاه بيت المقدس جعله يفكر بان اعدام هؤلاء الاسرى قد يثير رعبا في صفوف جيش صلاح الدين، كما حدث في الحملة الصليبية الأولى، ويمهد لانتصارات

(1) مجهول ، صلاح الدين وريتشارد :1/ 58.
(2) مجهول، صلاح الدين وريتشارد :1/ 59؛ رنسيمان ، تاريخ الحملات الصليبية مملكة عكا، ترجمة نور الدين خليل (لندن:1954)3 / 443.
(3) مجهول ، صلاح الدين وريتشارد :1/ 59-60.
(4) مجهول ، صلاح الدين وريتشارد :1/ 60-63 .
(5) علي سلطان عباس، مدينة عكا بين الاحتلال والتحرير 497-690هـ/ 1104-1291م (عمان: 2009م)، ص64.

عسكرية باتجاه تحقيق اهدافه، والذي يؤكد راينا طريقة الاعداد لإعدام الاسرى أختار مكان خارج اسوار عكا وعلى مرأى من الجيش الإسلامي المرابط لمنع تقدم الصليبين، وحملوا على الاسرى حملة رجل واحد بطريقة وحشية بربرية كما وصف ذلك احد المشاركين في الحملة بقوله: "أنْ يخرجوا بهم من المدينة لقطع رقابهم، فانجز امره المسلحون المرتزقة واجهزوا عليهم تنفيذا لأمر الملك"[1]، وتم اختيار وقت العصر لتنفيذ المذبحة خوفا على ما يبدوا من ردة فعل المسلمين الذين بادروا بالهجوم لإنقاذ الاسرى، الا ان احتياط ريتشارد وتخطيطه وحلول الظلام بين المعسكرين منع ذلك، وقد تناولت المصادر العربية تلك الحادثة واصفة اثارها النفسية على المسلمين:[2]

المبحث الرابع
الرعب الذي احدثتهُ الحملة الصليبية الرابعة
crusade The Fourth (600هـ/ 1204م)

لقد اثبت الغرب الأوربي اللاتيني الكاثوليكي بجميع بلدانه (الفرنجة، والألمان، والإنكليز ...الخ)، انهم بَرابِره بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعاني، عملهم الوحيد القتل و السلب والنهب، ويحققون هدفهم هذا عن طريق اثارة الرعب اينما حلوا وارتحلوا، ولا علاقة لهم بالديانة المسيحية لا من قريب ولا من بعيد وخير شاهد على ذلك ما فعلوه بالقسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية (سنة 600هـ/ 1204م)، عندما احتلوها في الحملة الصليبية الرابعة، وما شهدته من احداث دموية من تخريب وقتل وسلب ونهب دون اي مراعاة انهم اخوانهم في الديانة المسيحية، فقد وضعوا السيف ثلاثة ايام في رقاب سكانها دون تمييز بما فيهم الاساقفة والرهبان والقساوسة الذين اخرجوهم من كنيسة آيا صوفيا ذات المكانة الدينية العظمى لدى العالم المسيحي الشرقي، وقد وصلت اخبار هذه المذبحة المروعة الى المشرق العربي الاسلامي فدونها ابن الاثير بقوله: »فجاء الفرنج اليها، فخرج اليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الانجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم اجمعين ونهبوا الكنيسة»[3]، لم تشفع لهم الاناجيل والصلبان وكل عبارات التوسل ليقتلوا جميعا[4]، ومما زاد في بشاعة هذه الجريمة ان مقتحمي الكنيسة كانوا سكارى مزقوا الستائر والبسط والفرش ونهبوها، وداسوا الاناجيل المقدسة بأقدامهم، وحطموا الايقونات ذات القيمة الفنية النادرة[5] وترك الاطفال والنساء من الجرحى والمرضى في شوارع المدينة يلفظون انفاسهم الاخيرة دون رحمة، حتى بدت القسطنطينية تلك المدينة الفائقة الجمال آنذاك تشبه سوق بيع اللحوم على حد تعبير المؤرخ البريطاني (شتيفن رنسيمان Sir Steven Runciman) المتخصص في تاريخ الحروب الصليبية Crusade[6]، ونقلت لنا المراجع الحديثة وصفاً لتفاصيل لتلك المذبحة المروعة على لسان مؤرخ بيزنطي معاصر لها يدعى نيكتاسخونياتس – Niceta Choniats (ت:1215م) لقد نهبت نفائس المعادن

(1) مجهول ، صلاح الدين وريتشارد :2/ 52.

(2) ينظر: ناصر عبد الرزاق، صلاح الدين والدراسات الاستشراقية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب (جامعة الموصل :1991م)، ص273-275.

(3) الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط3 (بيروت: 1998م): 10/ 289.

(4) ابن العبري، مختوطة تاريخ الازمنة، ترجمة ودراسة وتقديم شادية توفيق حافظ، ط1المركز القومي للترجمة (القاهرة: 2007م)، ص48 ؛ ابو الفداء الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية ، مطبعة دار الحديث (القاهرة :2006م): 7/ 38 .

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور ،الحركة الصليبية ،مكتبة الانجلو المصرية ط1 (القاهرة :1971م) :2/ 935 .

(6) تاريخ الحروب الصليبية :3/ 165-166

الثمينة من الكنائس واغتصبت الراهبات في الاديرة وهكذا ذبحت عاصمة الامبراطورية البيزنطية بسكين الغرب الاوربي الكاثوليكي، واختتم حديثه عن تلك الماسات بانه تمنى من كل قلبه ان تحتل مدينته من قبل المسلمين بقيادة السلطان صلاح الدين الايوبي (س/ ذ) لكونه سيكون بالتأكيد أرحم من هؤلاء البرابرة[1]، وقد أكد المؤرخ أبو شامة (ت: 665هـ/ 1258م) تلك الأخبار وزاد عليها بأن مسلوبات القسطنطينية وصلت إلى المشرق العربي الإسلامي وبيعت فيه «وحازوا ممتلكاتها وانتهبوا ذخائرها وما حوته كنائسها من آلات ورخام، وحملوها الى الديار المصرية والشامية فبيعت، ووصل منه الى دمشق رخام كثير، وكان اسامة يعمر داره فحصل منه شيئا لم يكن قبله مثله، وزخرفها ...»[2].

الخاتمة

توصلت الدراسة الى النتائج التالية :

1ـ كان هدف الصليبيين من الإفراط الغير المبرر في القتل والتعذيب اثارة الرعب المتعمد لضمان السيطرة على ما تبقى من سكان المدن التي احتلوها سيما وان اعدادهم كانت قليلة وغير قادرة على السيطرة على مساحات شاسعة وشعوب غفيرة لا تتقبل الرضوخ لهم .

2ـ ان دوافع الصليبيين في غزوا المشرق الاسلامي لم تكن دينية، ولا تقبل بها اي ديانة سماوية، وتعاليم المسيحية بريئة منها واتخذت الدين غطاء لها لإبادة الخصوم من المسلمين واليهود والنصارى الشرقيين (الأرثوذكس) .

3ـ الحقد الدفين للاتين الكاثوليك على الامبراطورية البيزنطية والتعصب والتطرف ضد سكانها من المسيحين الارثوذكس، والدليل ما فعلوه في الحملة الرابعة .

4ـ انكشاف اهداف الغرب الاوربي الكاثوليكي ونواياهم وحقيقتهم، ليس فقط لدى المؤرخين الشرقيين بل حتى لدى الكتاب والمؤرخين البيزنطيين من امثال سان تخويس الذي تمنى غزو المسلمين على اخوانهم الكاثوليك .

5ـ اثبتت الدراسة أنَّ الغرب الأوربي الكاثوليكي، عبارة عن حشود بربرية من الشعوب اللاتينية، لا تملك غير ثقافة القتل والسلب والنهب لكل ما تواجهه .

6ـ ارتكبت الجموع الغربية اللاتينية ،جرائم ضد الحضارات الانسانية (الإسلامية والبيزنطية) لن يغفرها التاريخ .

7ـ ارتبطت أسماء الحملات الصليبية بمذابح كبيرة، مثل: الحملة الصليبية الأولى ارتبط اسمها بمذبحة بيت المقدس، والحملة الصليبية الثالثة بمذبحة عكا، والحملة الصليبية الرابعة بمذبحة القسطنطينية .

(1) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية :3/ 20 ؛ محمد مؤنس عوض، نقد رؤية المؤرخ البريطاني السير ستيفن رنسيمان، بحث منشور في مجلة بحوث الشرق الاوسط العدد 37 الجزء الاول ص 25 .

(2) الروضتين في اخبار الدولتين ، ص52.

المصادر

القران الكريم

الكتاب المقدس (العهد الجديد)، دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط، ط4 (بيروت :1993م).

اولا: المصادر العربية والمعربة

- ابن الاثير، عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم (630هـ/ 1232م)

1ـ الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلمية (بيروت: 1998م) .

ـــ الاصفهاني ، ابي عبدالله محمد بن محمد بن حامد (ت:597هـــ/ 1179م)

2ـــ الفتح القسي في الفتح القدسي ،قدم له ووضع حواشيه ابراهيم شمس الدين ، ط1دار الكتب العلمية (بيروت :2003م).

- انا كومنينا (Anna Comnena ت: 543هـ/ 1148م)

3 - الالكسياد Alexiod،ترجمة حسن حبشي ، المجلس الاعلى للثقافة، ط1 (القاهرة : 2004م).

- اينهارد (ت:840م)

4 - سيرة شار لمان ، ترجمة عادل زيتون ، دار الاحسان للطباعة والنشر (دمشق:1989م).

- البرت فون اخن او (اوف اكس Albertd Aix ت:553هـ/ 1158م)

5 - تاريخ الحملة الصليبية الاولى ، تحقيق وترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج51(دمشق :2007م)،

ـــ بطرس توديبود (د/ ت) .

6ـــ تاريخ الرحلة الى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ط1(الاسكندرية:1998م) .

الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت (ت: 656ه/ 1229م)

7ـ معجم البلدان ، دار صادر (بيروت :1995).

الحنبلي، ابو اليمن القاضي مجير الدين (ت:928هـ/ 1521م)

8ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الحيدرية (النجف الاشرف :1968م)

الراغب الاصفهاني، ابو القاسم الحسين بن محمد (ت:502هـ/ 1108م) .

9ـ المفردات في غريب القران، دار القلم (دمشق: 2010م).

ريموندا جيل Raimond d Agiles

10ـ تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ،ترجمة حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ط1 (الاسكندرية: 1989 م).

- ابو شامة، شهاب الدين ابو محمد (ت: 656هـ/ 1266م)

11 - الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية ط1(بيروت :2002م).

- ابن شداد ، بهاء الدين ابو المحاسن يوسف (ت: 632هـ/ 1234م)

12 - سيرة صلاح الدين الايوبي النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار المنار ط1 (القاهرة: 2000م).

الصريحي ، محمد بن يوسف (ت: 793هـ/ 1392م)

13ـ ديوان ابن زمرك الاندلسي، تحقيق د. محمد توفيق النيفر، دار الغرب الاسلامي ، ط1(بيروت :1997).

ـــابن العبري، ابو الفرج بن داود(ت:685هـ/ 1286م)

14ـــ مخطوطة تاريخ الازمنة ، ترجمة ودراسة وتقديم شادية توفيق حافظ ، ط1المركز القومي للترجمة

(القاهرة :2007م) .
فوشيه الشاتري Foulcher de chartres
:ت521هـ/ 1127م)
15ـ تاريخ الحملة الى القدس ، ترجمة د. زياد جميل العسلي، دار الشروق للنشر ط1 (عمان:1990).
ـــ ابن القَلانِسي ، ابي يعلي حمزة (ت:555هـ/ 1160م)
16ـ ذيل تاريخ دمشق مطبعة الاباء اليسوعيين (بيروت: 1908م) .
ـ ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل (ت:774هـ/ 1372م)
17ـ البداية والنهاية ، مطبعة دار الحديث (القاهرة :2006م) .
مجهول ،مؤلف
18ـ الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، مكتبة دار الملاح (دمشق :1981).
مجهول، مؤلف
19ـ اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، دار المعارف (القاهرة:1947م) .
مجهول ، مؤلف
20ـ صلاح الدين وريتشارد ، ترجمة حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة :2000م).
ابن منظور ،محمد بن كرم (ت:711هـ/ 1311م)
21. لسان العرب، اعتنى بتصحيحه امين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي ، مؤسسة التراث العربي ط3(بيروت :1999).
بن منقذ، ابو مظفر اسامة (ت:584هـ/ 1188م).
22ـ الاعتبار ، دار الهلال (القاهرة :2002م)،
وليم الصوري (ت:581هـ/ 1185م)
23ـ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار ،نقلة الى العربية د. سهيل زكار، دار الفكر (بيروت:2003م).
ـ يعقوب الفيتري (ت: 638هـ / 1240م) .
24ـ تاريخ بيت المقدس ، ترجمة وتعليق د. سعيد البيشاوي ، ط1 دار الشروق (عمان :1998م).

ثانياً: المراجع العربية والمعربة :

رنسيمان ، ستيفن
1ـ تاريخ الحملات الصليبية مملكة عكا ، ترجمة نور الدين خليل (لندن :1954)
سعيد عبد الفتاح عاشور
2ـ الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو مصرية ط1(القاهرة: 1971م).
عبد القادر احمد اليوسف ،
3ـ العصور الوسطى الاوربية (476-1500م)، المؤسسة اللبنانية للكتاب الاكاديمي ط1 (بيروت :2014)
عبد الامير محمد امين واخرون .
4ـــ التاريخ الاوربي في العصور الوسطى ، مطبعة جامعة بغداد (بغداد :1980م).
علي سلطان عباس .
5ـــ مدينة عكا بين الاحتلال و التحرير 497-690هـ/ 1104-1291م (عمان :2009م)،
ـــــ قاسم عبده قاسم ،
6ـــ الايديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الاولى 1095-1099م ، ط1، ذات السلاسل (الكويت:1988م).
ـ محمد فواد عبد الباقي .
7ـ معجم المفهرس لألفاظ القران الكريم ،دار الكنب المصرية (القاهرة :2006م) .
ـــ محمد فتحي الشاعر
8ـ احوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099ـ1187م، منشورات مكتبة دار الثقافة (بغداد :1989م).

ـ نخبة من الباحثين ،
9ـ موسوعة التفسير الموضوعي للقران الكريم ، مركز تفسير الدراسات القرآنية.
هـ .و. كارلن- ويفز ،
10ـ شار لمان ، ترجمة السيد الباز العريني ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة :1959)

ثالثاً : الرسائل والأطاريح:

علي سلطان عباس .
1ـ المغاربة في مصر وبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (490-690هـ/ 1098 - 1290م)، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل (كلية التربية :2000).

ناصر عبد الرزاق
2ـ صلاح الدين والدراسات الاستشراقية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب (جامعة الموصل:1991م)، ص273-275.

رابعا : الدوريات (المجلات العلمية):

امام الشافعي محمد حمودي ،
1ـ الاسرى في الامارات الصليبية ، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط ، مجلد1 ـ العدد28 سنة 2009.
ـ سعيد عبد الفتاح عاشور ،
2ـ ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية ، عدد 102(بيروت :1987).
علي سلطان عباس ،
3 ـ امير الكرك الصليبي رينودي شاتيون (ارناط)، بحث منشور في مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية مجلد 13 العدد 2006م.
4ـ الدعاية والاعلان الصليبي في تعبئة الغرب الاوربي لاحتلال المشرق العربي الاسلامي (490 - 588هـ/ 1096 - 1192م) ، بحث منشور مجلة العلوم الانسانية كركوك ، مجلد 14ـ العدد 3 لسنة 2019م.
ـ محمد مؤنس عوض ،
5ـ نقد رؤية المؤرخ البريطاني السير ستيفن رنسيمان، بحث منشور في مجلة بحوث الشرق الاوسط العدد 37 الجزء الاول.